الوليمة

كَانَ شكباك رَجُلاً فَقِيراً يَعْمَلُ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ فِي تِجَارَةٍ صَغِيرَةٍ . لَيْسَ مَالٍ ضَئِيلٍ وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا لَحِقَهُ سُوءُ الطَّالِعِ فَخَسِرَ تِجَارَتَهُ وَفَقَدَ مَا لَهُ وَسَاءَ حَالُهُ حَتَّى اضْطُرَّ إِلَى اسْتِجْدَاءِ النَّاسِ كَيْ يَسُدَّ رَمَقَهُ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ انْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ إِلَى قَصْرٍ فَخْمٍ يَحِيطُ بِهِ حَدِيقَةٌ غَنَّاءُ وَاسِعَةٌ وَأَبْصَرَ بِدَاخِلِ الْقَصْرِ عَدَداً كَبِيراً مِنَ الْخَدَمِ فِي ثِيَابٍ جَمِيلَةٍ مُزَرْكَشَةٍ ، فَاقْتَرَبَ مِنْ أَحَدِهِمْ وَسَأَلَهُ عَنْ صَاحِبِ الدَّارِ فَدُهِشَ الْخَادِمُ وَقَالَ لَهُ : « لاَ بُدَّ أَنَّكَ غَرِيبٌ عَنْ هٰذَا الْبَلَدِ حَتَّى تَسْأَلَنِي هٰذَا السُّؤَالَ ، إِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ لاَ شَكَّ قَصْرُ السَّيِّدِ خَالِدٍ »

وَكَانَ السَّيِّدُ خَالِدٌ مِنَ الْبَرَامِكَةِ الَّذِينَ نَزَحُوا مِنْ بِلاَدِ فَارِسَ وَاسْتَوْطَنُوا بَغْدَادَ ، وَكَانَ مِنْ أُسْرَةٍ عَرِيقَةٍ اشْتَهَرَتْ بِالثَّرَاءِ وَالْجُودِ وَالإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ ، وَطَلَبَ شكباك إِحْسَاناً مِنَ الْخَادِمِ فَاشَارَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَقِفَ بِلَى صَاحِبِ الْقَصْرِ فَشَكَرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ إِلَى الدَّارِ وَظَلَّ سَائِراً حَتَّى وَصَلَ إِلَى بِنَاءٍ جَمِيلٍ قَائِمٍ وَسَطَ الزُّهُورِ وَالأَشْجَارِ وَأَبْصَرَ بَاباً مَفْتُوحاً فَدَخَلَهُ فَإِذَا هُوَ فِي بَهْوٍ فَخْمٍ مُؤَثَّثٍ بِأَثْمَنِ الرِّيَاشِ ، جُدْرَانُهُ مُزْدَانَةٌ بِأَبْدَعِ الصُّوَرِ ، وَرَأَى عَلَى مَقْعَدٍ عَالٍ شَيْخاً كَبِيراً لَهُ لِحْيَةٌ بَيْضَاءُ وَعَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ هَادِئَةٌ فَحَيَّاهُ شكباك فَأَحْسَنَ الشَّيْخُ لِقَاءَهُ وَسَأَلَهُ عَمَّا يُرِيدُ فَقَالَ شكباك « مَوْلاَيَ إِنِّي فَقِيرٌ مُعْدِمٌ لاَ أَمْتَلِكُ

وطلب شكباك احساناً من الخادم

طعاماً ولا مالاً وأنا في شديد الحاجة إلى معونتك
فبدت الدهشة على وجه السيد وقال بلطف :
« أيمكن أن يكون في بغداد شخص في مثل هذا
الحال ! ؟ ليس في استطاعتي أن أتخلى عن
مساعدتك » فاستطرد شكباك قائلاً : « شكراً لك
يا مولاي ! إن حاجتي لشديدة وإن الجوع ليقتلني »
فأجاب السيد على الفور : « أحقاً ما تقول ؟ أخشى
أن يقتلك الجوع إذا لم نتداركك بالطعام .
وهنا قال السيد في صوت هادئ رزين « يا غلام
أحضر الطست والإبريق لتغسل أيدينا » ولكن
أحداً لم يلب النداء ولكن السيد أخذ يحرك
يديه في الهواء كما لو كان يغسلهما فعلاً وأمر
ضيفه بأن يحذو حذوه ، فاستولى على شكباك
ذهول شديد ولكنه أخذ في تمثيل ما أمر به .
ثم قال السيد : « هذا حسن والآن أحضر لنا يا غلام
شيئاً نأكله ، أسرع ولا تجعلنا ننتظر طويلاً »
ولكن أحداً لم يظهر ليلبي هذا النداء وعلى
الرغم من ذلك أخذ السيد في تحريك يديه وفمه
كأنه يأكل حقيقة ثم قال لضيفه : « كل حتى
تشبع فقد كاد يقضي عليك الجوع الخبيث أيها
المسكين ، ولكن مالي أراك هكذا كسولاً !
إن شهيتك لا شك ضعيفة ، ألا تظن أن هذا
الخبز من نوع جيد ؟ » ، فأجابه شكباك الذي لم
ير خبزاً ولا طعاماً : « حقاً ! حقاً لم أذق في حياتي
أجود منه » وأخذ السيد يستحثه على الأكل
جهد طاقته ثم قال : « يا غلام أحضر لنا شيئاً
آخر » ثم بدا كأنه يلتهم شيئاً لذيذاً وسأل
عما إذا كان ذاق لحماً أطيب من ذلك اللحم
فأجاب شكباك على الفور « لا شك أنه جيد
جداً ولذيذ للغاية » فقال السيد : « أنا منغبط
لسماع ذلك وأرجو أن تأكل منه ما تشاء » ،
ثم نادى قائلا يا غلام : « هات الإوزة المحمرة »
واستطرد قائلاً : « إوزة سمينة طرية ألبس
كذلك ؟ ولكن لا ينبغي أن نملأ بطوننا منها
لأن هناك ألواناً أخرى ربما كانت خيراً منها » .
ولم يلبث أن أمر الخادم برفع باقي الإوزة
وإحضار الألوان الأخرى ، وهنا قال السيد :
« أرى أنك تحب هذا اللون وأنك تأكل منه
بشهية عظيمة فقال شكباك « نعم نعم إنه أحب
الألوان إلي وإن طاهيك لرجل ماهر في صنعه

ثُمَّ أَمَرَ السَّيِّدُ بِإِحْضَارِ الفَاكِهَةِ وَطَلَبَ مِنْ ضَيْفِهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا مَا يُرِيدُ . ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ : « خُذْ هٰذَا اللَّوْزَ فَقَدْ جُمِعَ مِنَ الحَدِيقَةِ الآنَ » وَأَخَذَ الإِثْنَانِ فِي تَقْشِيرِ اللَّوْزِ وَأَكْلِهِ مَعَ أَنْوَاعٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الفَاكِهَةِ الخَيَالِيَّةِ . وَقَالَ السَّيِّدُ لِضَيْفِهِ : « يُؤْسِفُنِي أَنْ يَكُونَ غَذَاؤُنَا هٰكَذَا بَسِيطاً فِي هٰذِهِ المَرَّةِ » فَأَجَابَ شَكْبَاكُ « عَلَى العَكْسِ مِنْ ذٰلِكَ يَا مَوْلَايَ وَلَقَدْ أَكَلْتُ فَوْقَ طَاقَتِي وَلَا أَظُنُّنِي قَادِراً عَلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ آخَرَ » فَقَالَ السَّيِّدُ : « إِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنِّي آمُرُ بِرَفْعِ آنِيَةِ الطَّعَامِ هٰذِهِ وَلْنَأْتِ لَكَ بِالنَّبِيذِ الفَاخِرِ » . فَأَجَابَ شَكْبَاكُ « مَعْذِرَةً يَا مَوْلَايَ فَأَنَا لَا أَشْرَبُ النَّبِيذَ » فَقَالَ السَّيِّدُ « وَلٰكِنَّ عِنْدِي أَجْوَدَ نَبِيذٍ فِي العَالَمِ وَيَنْبَغِي أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ » قَالَ ذٰلِكَ وَتَظَاهَرَ بِأَنَّهُ يَمْلَأُ قَدَحاً ثُمَّ نَاوَلَهُ لِضَيْفِهِ الحَاذِقِ المُفْتَاظِ فَتَظَاهَرَ بِشُرْبِهِ فَسَأَلَهُ السَّيِّدُ ، « وَالآنَ خَبِّرْنِي أَلَيْسَ لَذِيذاً ؟ » أَجَابَهُ : « حَقّاً إِنَّهُ لَذِيذٌ جِدّاً » فَقَالَ السَّيِّدُ « إِذاً فَاشْرَبْ قَدَحاً آخَرَ » . وَلَمَّا شَعَرَ شَكْبَاكُ بِأَنَّ مَهْزَلَةَ الوَلِيمَةِ قَدِ انْتَهَتْ قَامَ يَتَرَنَّحُ كَأَنَّهُ ثَمِلٌ وَاقْتَرَبَ مِنَ السَّيِّدِ وَلَطَمَهُ عَلَى خَدِّهِ لَطْمَةً شَدِيدَةً جَعَلَتْهُ يَصْرُخُ مِنَ الأَلَمِ وَيَقُولُ : « إِلَيْكَ عَنِّي يَا نَاكِرَ الجَمِيلِ وَهَلْ فَقَدْتَ صَوَابَكَ » ؟ فَتَظَاهَرَ شَكْبَاكُ بِأَنَّ صَوَابَهُ قَدْ عَادَ إِلَيْهِ وَقَالَ نَادِماً مُعْتَذِراً « إِنِّي آسِفٌ جِدّاً يَا مَوْلَايَ عَلَى مَا صَدَرَ مِنِّي وَقَدْ كَانَ هٰذَا نَتِيجَةَ إِصْرَارِكَ عَلَى أَنْ أَشْرَبَ كَثِيراً مِنْ هٰذَا النَّبِيذِ الَّذِي لَمْ أَتَعَوَّدْهُ . لَقَدْ كَانَ يَكْفِي مَا قَدَّمْتَ لِي مِنْ غِذَاءٍ شَهِيٍّ » . وَبَدَلاً مِنْ أَنْ يَظْهَرَ الغَضَبُ عَلَى وَجْهِ السَّيِّدِ ضَحِكَ مِلْءَ شِدْقَيْهِ وَقَالَ لِشَكْبَاكَ وَهُوَ يَرْبُتُ عَلَى كَتِفِهِ : « إِنَّكَ رَجُلٌ مَرِحٌ صَبُورٌ وَسَأَعْفُو عَنْكَ وَسَأَتَّخِذُكَ مِنَ الآنَ صَدِيقاً لِي فَقَدِ احْتَمَلْتَ طَوِيلاً دُعَابَتِي السَّخِيفَةَ وَالآنَ هَيَّا نَأْكُلْ حَقِيقَةً » . وَصَفَّقَ السَّيِّدُ بِيَدَيْهِ وَأَمَرَ الخَدَمَ الَّذِينَ أَسْرَعُوا بِإِعْدَادِ المَائِدَةِ فِي الحَالِ ، وَهٰكَذَا أُحْضِرَتْ فِعْلاً أَلْوَانُ الطَّعَامِ الَّذِي كَانَ يَتَحَدَّثُ السَّيِّدُ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ وَأَخَذَ شَكْبَاكُ يَأْكُلُ فِي الحَقِيقَةِ مَا سَبَقَ أَنْ أَكَلَهُ فِي الخَيَالِ . وَمَا إِنِ انْتَهَى حَتَّى أَمَرَ لَهُ السَّيِّدُ بِكِسْوَةٍ جَدِيدَةٍ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى نَبَاهَتِهِ وَصَبْرِهِ ، وَجَعَلَهُ رَئِيساً لِخُدَّامِ القَصْرِ .